تدبر سورة الأنفال

د. رقيــة العلوانــي

تدبر سورة الأنفال

مقدمــة

الحمـد لله الـذي أنزل الكتـاب للتدبر في آياته والعمـل بأوامره والسير على خطى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم. وبعد

يحتـاج المتدبر في كتـاب الله أن يقبـل على القـرآن وهو متيقن بقدرة القـرآن العظيم على الإجابة عن تساؤلاتـه، همومه، أزماته الخاصـة والعامة، وهو أمـر يستلزم من القلـب التخلص من ذلك الانغماسـ في الدنيـا ومظاهرهـا والانشـغال بصـغائر الأمور عن عظائمها مع استحضـار اليقين بهداية الكريم وقدرته على معالجة ما يمرّ به الإنسان في حياته.

فحـين يقرأ المتدبر ما ورد في القرآن من أحداث تاريخية كغزوة بـدر التـي تناولتها سـورة الأنفال التي نتدبـر، لا ينظر إلى الحدث وكأنــه حدث تاريخي مرّ وانتهى، بل يقـف عند الحدث، ليتعلم منه الدروس والعبر التي يمكنه من خلال تدبرها الإفادة منها في واقعه وأزماتـه المعاشة اليوم. فالقرآن الكريم ليس بكتاب تاريخ وقصص وأحداث لا علاقة لها بالواقع.

أجواء السورة

نزلت سورة الأنفال على النبي صلى الله عليه وسلم بعد غزوة بدر، وكان المسلمون قد خرجوا من مكة مهاجرين بأنفسهم، تاركين كل شيء وراء ظهورهم، المال والولد والأسرة..خرجوا مهاجرين من أوطان كانت تعز عليهم؛ فمكة ذات مكانة خاصة في قلب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ومع ذلك عندما اقتضى الأمر أن يخرج، خرج وتركها لله ولدينه وللحقّ الذي آمن به.

وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وبدأ ببناء دولة فتيّة صغيرة، لا تمتلك من مقومات الدولة المادية الكثير، كل ما يمتلكه أفرادها إيماناً صادقاً ويقيناً بالله عز وجل. وكان هذا اليقين هو المحرك الأقوى والأساس لبناء الدولة الأولى في تاريخ الإسلام.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد سمع بقافلة تجارية لقريش قادمة من الشام يتزعمها أبو سفيان بن حرب، وتتكون من ألف بعير محملة بالبضائع، يحرسها أربعون رجلاً فقط، فندب المسلمين إليها، ليأخذوها لقاء ما صادر المشركون من أموال وتجارة المسلمين في مكة.

وأدرك أبو سفيان الأمر وهو فى طريقه الى مكة، وبلغه عزم المسلمين على خروجهم لأخذ القافلة، فأرسل إلى مكة من يخبر

قريشــاً بالخبر ويستفزهم للخروج لإنقاذ أموالهــم .إلا أنه أتيح له حماية القافلــة، فأخبر قريشًا بأن القافلــة التجارية قد نجت، وأن لا داعي للقتال.

إلا أن أبا جهل ووجهاء قريش رفضوا إلا القتال، فخرجت قريش في نحو ألف مقاتل، ومعهم عدد من القيان يضربن بالدفوف، وقال أبو جهل قولته المعروفة: ننحر الجِمال ونُطعم الطعام ونسقي الخمر وتفرّق علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وبجمعنا، فلا يزال العــرب يهابوننا أبــداً بعدها. فأبو جهل لم يخــرج نصرة للحق، لم يُخرجــه العــدل أو نصرة مظلــوم وإنمــا أخرجه التباهــي والتكبر والتعجرف والتفاخر الفارغ.

أمــا المسلمون فــكان وضعهــم مختلفــا، إذ كان خروجهم لأخذ القافلة والتربص بها ثم العودة إلى المدينة. ولم يكن هناك استعداد أو تهيئــة ماديــة أو معنويــة لمواجهة العدو في ساحة الحــرب. إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم عرض عليهم الوضع وأطلعهم على عزم المشركين على المواجهة والحرب. فجمع النبي صلى الله عليه وسلم الناس واسْتَشَارَهم، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ فَأَحْسَنَ، ثُمَّ قَامَ عُمَرُ كَذَلِكَ، ثُمَّ الْمِقْدَادُ فَذَكَــرَ نَحْوَه وَزَادَ فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ سَلَكْتَ بِنَا بَــرْكَ الْغِمَادِ لَجَاهَدْنَا مَعَــكَ مِنْ دُونِهِ. فَقَــالَ النبي صلى الله عليه

وسلم: أَشِيرُوا عَلَيَّ. فَعَرَفُوا أَنَّهُ يُرِيدُ الْأَنْصَارَ، وَكَانَ يَتَخَوَّفُ أَنْ لَا يُوَافِقُوهُ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُبَايِعُوهُ إِلَّا عَلَى نُصْرَتِهِ مِمَّنْ يَقْصِدُهُ لَا أَنْ يَسِيرَ بِهِمْ إِلَى الْعَدُوِّ، فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذ: امْضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أُمِرْتَ بِهِ فَنَحْنُ مَعَكَ. فتح الباري شرح صحيح البخاري

مقاصد السورة

تأتي أول آية في السورة بقوله سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. تساءل المسلمون عن قسمة الغنائم التي حصَّلوها بعد معركة بدر. جاء في مسند الإمام أحمد عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ عَنْ الْأَنْفَالِ فَقَالَ فِينَا مَعْشَرَ أَصْحَابِ بَدْرٍ نَزَلَتْ حِينَ اخْتَلَفْنَا فِي النَّفَلِ وَسَاءَتْ فِيهِ أَخْلَاقُنَا فَانْتَزَعَهُ اللَّهُ مِنْ أَيْدِينَا وَجَعَلَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَسَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ بَوَاءٍ يقول على السواء. مسند أحمد. باقي مسند الأنصار.

وسوء الخلق المشار إليه ليس ما يتبادر إلى أذهاننا اليوم عندما نصف شخصاً فنقول سيء الخلق، ولكنه اللوم الذاتي الذي شعروا به رضوان الله عليهم من حيث سؤالهم عن قسمة الغنائم بعد غزوة بدر.

ولنــا أن نتخيل قوة الإيمان التي وصلوا إليها رضوان الله عليهم، فهم يعتبرون أن مجرد التفكير بمتاع الدنيا الزائل والاختلاف عليه من قبيل سوء الخلق!.

إلا أن الملفــت للنظر أن الإجابة عــن كيفية قسمة الغنائم جاءت بعد أربعين آية من سورة عدد آياتها ٧٥ آية!.

أربعــون آيــة، والله عز وجل يــؤدب ويعلّم ويوجه فيهــا البدريين المنتصريــن ومعهم كل الأجيال المخاطبة بهــذا القرآن العظيم، إن النصر لا يأتي من خلال التركيز على القضايا المادية، بل من خلال صناعة الإيمان الحق في النفوس.

الإيمان الذي جاء الحديث عن كيفية بنائه في أربع آيات متتالية: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِيــنَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّــا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُــمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)﴾.

فــأول قانــون مــن قوانين النصــر هو هــذا النوع مــن الإيمان، إيمــان له مقاييس لــه موازين. وفي هذا لفتة رائعــة لقادة الجيوش في ضــرورة التأكد من مقياس وميزان التربية الإيمانية في النفوس، إذ أن أعظم دافع لنجاح الجيوش هو القوة المعنوية. فالجيوش التي

تخــرج دون إيمان بالقضية التي تخــرج لأجلها جيوش ضعيفة مهما بلغ التدريب العسكري والمادي الذي تلقته.

وتظهر أهمية هذا القانــون جليا في موقف النبي صلى الله عليه وسلم حين عرض الأمر على المهاجرين والأنصــار لتوضيح الغاية التــي خرجوا لأجلها والقضية التــي يقاتلون في سبيلها، فأراد بذلك أن يتأكد ويوجّه القادة العسكريين لهذا الأمر قبل الاستنفار والبدء بالمعركة.

فالنصــر الحقيقي في الإيمــان، في اليقين، في قــوة الإرادة التي يحملهــا الإنســان في قلبــه، في الهدف الــذي يخرج لأجلــه والغاية العظمى التي يؤمن بها.

يقول الله عز وجل في ذلك: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ من بَيْتكَ بالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقــاً مِّنَ الْمُؤْمنــينَ لَكَارهُونَ (٥) يُجَادلُونَــكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَــيَّنَ كَأَنَّمَــا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَــوْت وَهُمْ يَنظُــرُونَ (٦) وَإِذْ يَعدُكُمُ اللّه إِحْــدَى الطَّائفَتــيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَــيْرَ ذَات الشَّوْكَة تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّه أَن يُحقَّ الحَــقَّ بكَلمَاته وَيَقْطَعَ دَابرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوكَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨)﴾.

هذه الآيات تبين الحقيقة التي كانت في نفوس وفي صدور المؤمنين آنذاك، لم يكونوا متأهبين؛ فلم يريدوا الخروج للقتال، ليس خوفاً أو

خشيـة على شيء بل كانوا يخافون على هذا الدين من هزيمة تلحق به، وهم لا يزالون في بداية بناء الدولة الإسلامية.

هـذه رسالة عظيمة ينبه عليها القرآن كل جيل كل فرد كل مؤمن كل مجتمـع، أن البدايـات لا بـد أن تكون صحيحة. خـروج الإنسان وسائر عمله لا بد أن يكون لله، خروجك لا بد أن يكون لهدف عظيم: (كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ)، وما من غاية أعظم من الحق.

فـإذا قارنّا هـذه الغاية بالهدف الذي أخـرج كفار قريش، نجد أن الهـدف الـذي أخرج المشركين إنما هو التباهـي والتفاخر بمتاع الدنيـا الزائل، وإظهار التكبر والعنجهيـة والسيطرة على المسلمين ومقدراتهم وكسر شوكتهم، وبئست بها من غاية.

فالنصـر معقود بالإيمـان، ولذا جاء قول النبـي صلى الله عليه وسلم وهو يرى إقدام جنوده المؤمنين: "سيروا وأبشروا فإن الله قد وعـدني إحدى الطائفتين". تحقق النصر والمسلمون لم يذهبوا إلى بـدر بعد، لم يواجهوا أحداً مـن المشركين بعد، لكن المعركة حسمت من البداية في قلوبهم ونفوسهم المؤمنة.

ولذلـك جاءت الآية تصف إيمان الفئـة المنتصرة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ فالإيمان يزداد حين تُتلى آياتَ القرآن.

ثــم يأتي قانونٍ آخر في غاية الأهمية في ميدان النصر، أوضحته الآية: ﴿فَاتَّقُواْ اللّه وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ﴾.

التقــوى الحقيقية الفاعلة التي يصنعها القــرآن في نفوس أتباعه تجعــل إصلاح ذات البــين فريضة. فأنى للجيوشــ أن تنتصر وقلوب أفرادها متنازعة متنافرة متباغضة، فرّقتها أودية وتفاهات الدنيا؟!.

فالقــوة المادية مهما بلغ حجمها، لا تستطيع أن تفعل فعلها في الفوز والنصر إلا بوجود إيمان إيجابي يظهر في تصرفات وسلوكيات الأفراد.

هؤلاء الذيــن خرجوا جنوداً وأفراداً استطاعــوا أن يقيموا الإيمان في حياتهم عبادة وأخلاقاً. أقاموا الصلاة بخشوعها بهيبتها بأركانها بواجباتهــا بشروطهــا. فإقامــة الصــلاة عنصــر هــام مــن عناصر تغذية الــروح وتقوية النفس، وتقوية القلب الــذي به وعليه مدار الفوز والخسارة.

مــن أعظم عوامل الاستعانــة في مواقف كتلك التي تتحدث عنها ســورة الأنفــال إقامــة الصــلاة، التي تصــل العبــد الضعيف بربه وخالقــه؛ ليستمد العون والقوة والثبات منه، فيولّد ذلك شعورا لديه بالتوكل على الخالق الذي يمتلك أسباب النصر.

يأتــي بعد ذلك في الآية التاسعة قانون جديد من قوانين النصر،

في قولــه عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُــونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾٩.

قانــون الاستغاثة بالله، طلــب الغوث عند الضيــق والشدة. تلك العبــادة التي سارع إليها النبي صلــى الله عليه وسلم حين نظر إلى المشركين وهم فى ألف رجل، وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، فدخــل العريش مستغيثــا بربه عزّ وجلّ رافعا يديــه مستقبل القبلة يقول: "اللهــم أنجز لى ما وعدتنى، اللهــم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد فى الأرض".

وما زال يسستغيث بربه رافعاً يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأخــذ أبو بكــر رضى الله عنــه رداءه فألقاه علــى منكبيه ثم التزم مــن ورائه، وقال: يا نبى الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك وعدك، فنزلت الآية.

قبل أن يوجّه الإنسان عينه وقلبه شرقاً أو غرباً، عليّه أن يوجّه نداء استغاثة للحق للواحد الأحد الذي يمتلك تحريك جيوش الملائكة نصرة وتأييداً للمؤمنين، ولذا أردفتها الآية الأخرى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قانــون الاستغاثــة بالله عز وجل من قوانــين النصر، لا يأتي من قبيــل التحالــف مع الشرق أو الغرب، بل مــن قبيل التحالف مع الله

العزيز الحكيم والدخول معه في عقد الإيمان والوفاء بمستلزماته طاعة وانقياداً في واقع الحياة، في السّلْم كما في الحرب، في الرخاء كما في الشدة، في اليسر كما في العسر.

فحين يؤمن الإنسان بأن الله واحد، عزيز لايغلب، وأنَّ ما في هذا الكون من ورقة على شجرة إلا وهو الذي يحركها إن شاء، ويوقفها ويُسّكنها إن شاء، لابد أن يظهر صدى ذلك في الواقع الذي يعيش: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّه﴾.

وتتوالى الآيات في بيان قوانين النصر ومنها الثبات على الحق. يقول الله عز وجل في الآية ١٥: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾. الثبات على الحق مهما كانت أسباب القوة المادية التي يمتلكها العدو.

ففي غزوة بدر سأل النبي صلى الله عليه وسلم بعض العيون التي أرسلها عن عدد قريش، فتأكد له بأن عدد الفرسان الذين خرجوا من قريش قاربوا الألف مقاتل مجهزين بالعدة والعتاد، في حين أن أصحابه لا يتجاوز عددهم الثلاثمائة. هنا يأتي الثبات الذي جعله يثبت وأصحابه في ميدان المعركة، فجاء التأييد والتوفيق من الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾.

والثبات على الحق هو ما يحتاج إليه صاحب الحق لكن تأثير

الثبات من اللّه سبحانه بالتوفيق والتأييد: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

المطلـوب مـن أصحاب الحق الثبـات على الحق الـذي يدافعون عنـه، أما تأثير الثبات فهذا أمر متروك للرب سبحانه: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾.

يجـب ألا يكون أهـل الحق أقـل احتمالا من رجـال الباطل على الأقل. فنحن نرى أهل الباطل يثبتون على باطلهم، ويستميتون على مـا هم عليه وهم على باطل، فأنى لأهـلِ الحق أن يتخلوا عن الحق مهما كلفهم الدفاع عنه: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾.

فصاحـب الحـق لا ينبغي لـه أن يلتفت إلى خطـط أصحاب الباطل وتدابيرهم: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

لم تعـد المعركـة بين مؤمنـين وكافرين، أصبحت بـين الكافرين وبـين اللّه عز وجـل، وهذه قاعدة مـن أعظم القواعـد التي نحتاج استحضارها اليوم. ولنا أن نتخيل كيف سيكون ميدان معركة الذي يقـف فيه ثلة من الكافرين أمام مسبب الأسباب، رب الوجود، أمام من الدنيا والسماوات والأرض بقبضته سبحانه!

هـذا الشعـور يعطـي المؤمن المدافع عـن الحق قـوة لا يمكن أن

تدانيها قوة على وجه الأرض أبداً؛ لذا يقول الله عز وجل للمؤمنين: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَأَنَّ اللّهَ مَـعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الله سبحانه ليس مع المؤمنين – تأييدا وتوفيقا ونصرا– في غزوة بدر فحسب، بل مع كل مؤمن، وكل صاحب حـق بالتأييد والتوفيق. الله سبحانه مـع كل يد حق ارتفعت وأرادت أن تحـق الحق وتبطل الباطل، هذا قانون. فالله لا يتخلى عن عباده المؤمنين المخلصين المدافعين عن الحق والرافعين لرايته.

مـا الذي حدث في واقعنا المعاش؟ ما الذي حدث وجعل الناس – في كثير مـن الأحيان– يتزعزعون أو يخضعـون لضغوط معينة؟ ما الذي فقدوه؟.

فقـدوا هـذا الاتصـال الرائع العظيـم بينهم وبـين كتاب الله، الكتـاب الـذي أنزله سبحانـه ليكون منهج هداية وصـلاح إذا سار عليـه الناس في حياتهم وواقعهم. لا يكفـي الاستماع للآيات بقلوب لاهيـة، لا تغادر الكلمات أسماعها لتصـل إلى قلوبها ليتحقق سماع الإجابـة والطاعة كما في سـورة البقرة: ﴿سَمِعْنَـا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨٥) البقرة.

ولـذا جـاءت الآيـة التاليـة في الأنفـال: ﴿إِنَّ شَرَّ الـدَّوَابِّ عِندَ

اللّه الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوعَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوأَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾.

ثم يأتي ذلك النداء المحبب للقلوب المؤمنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

إنها الحياة الحقيقية التي يدعو اللّه سبحانه عباده المؤمنين إليها، ليست حياة الأبدان التي قد تحفل بكل ألوان البهرجة والكماليات والزخرفة والرفاهية، ولكنها حياة جافة، تشابه في موتها الزهور غير الطبيعية؛ شكلها جميل، يسر الناظرين، ولكنها بلا طعم، ولا رائحة، ولا أثر للحياة فيها.

ثم يأتي قانون جديد لا يتحقق النصر إلا به، ألا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قانون يعكس إيمان الفرد في الواقع. فما معنى الثبات على الحق والإيمان والإنسان يعيش في واقع يُنتهك فيه الحق والإيمان الذي يحمل أمام ناظريه فلا تتحرك ولا تنتفض مشاعره نصرة لذاك الحق!.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تاج الأمة وسياجها المصون، له فقهه وآدابه وأحكامه. ولذا لم يكن النبي صلى اللّه عليه وسلم يغضب لنفسه أبدا، بل كان لا يغضب إلا حين تُنتهك محارم اللّه أو أمر من أوامره سبحانه.

فالنصـر من الله، ولا ينزِّله سبحانه علـى مجتمع أو على أفراد يـرون الحق يُنتهك فلا تتحرك سواعدهـم لإقامة الحق وإحقاقه ، ولا تنطق ألسنتهم لأجل تغيير خطأ أو إصلاح خلل.

مـن هنـا جاءت الآية محـذرة من عاقبـة الصمـت السلبي عن المنكـر والفساد بكل أشكاله: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَـةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

العـذاب الذي يعـمّ هو العذاب الـذي يحذِّر الله عـز وجل منه النـاسـ؛ إذا اشتركوا في الخطـأ بالصمت والسكوت وعدم معالجته وإيقافه.

العـذاب العام الذي لا يفرق بين مـن ارتكب الخطأ وبين من رآه وسكـت عنـه دون أن يحاول تغييره، ظنا منـه أن شر الخطأ والمنكر لن يصل إليه.

كما جاء في الحديث: ﴿عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُـدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًـا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَـإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعا﴾ رواه البخاري.

فالمجتمع كالسفينة، أفراده ركاب سفينة واحدة، فإن أحدث واحد منهم فيها خرقا بأخطائه على الآخرين أن يتداركوا الخطأ ويقوموا بإصلاحه ومعالجته. فإذا لاذ الجميع بالصمت اتسعت خروق السفينة، ولم تتمكن من الصمود والثبات. ولنا أن نتساءل مع كل تلك الخروقات في سفن المجتمعات التي نعيش فيها، هل نستطيع الإبحار وسط الأعاصير والشدائد والمحن!.

فكم من خرق في سفينة المجتمع أُحدث ولم يسارع أحد لإصلاحه؟ كم من خطأ رأينا وتغاضينا عنه؟ كم من منكر رأينا فلم نحاول تغييره؟ كم من معروف رأيناه يُداس فلم ننتفض لمعالجته؟ كم من حق نراه يُنتقص فلا نغضب لأجله؟ كم من ضعيف رأيت فلم تهب لنجدته ومساعدته خوفاً ممن هو أقوى منه من البشر؟.

قد يبرر الإنسان تقاعسه عن تغيير المنكر بعشرات المبررات، ولكن ذلك لا يغني من الحق شيئا.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل لاستنزال نصر الله عز وجل. وهو لا يكون إلا بالحكمة والموعظة الحسنة كما جاء في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ (١٢٥)﴾. الأمر بالمعروف يقتضي أن نسهم عند رؤية خطأ في تصحيحه، في تصويبه. تخيل لو كنت تسكن في أحد الأحياء، ورأيت حريقاً شبّ

في بيت من البيوت، هل تلتزم الصمت وتلوذ به على أمل أن يتوقف الحريق دون تدخل منك؟.

هذا ما نفعله نحن في مجتمعاتنا حين نرى الخطأ والمنكر ولا ننكره ولا نسهم في تصحيحه، كمن ينتظر أن تصل النار إلى بيته ليتحرك بعدها في محاولة بائسة يائسة لإخمادها وإطفائها!.

ولكن ثمة سؤال يطرحه القرآن علينا: لماذا أصبحنا اليوم نتوقف عن إنكار المنكر؟! لمَ تحولنا إلى مرحلة من الخمود تقارب مرحلة الموت، وكأن الأمر لا يعنينا، وكأن المجتمع الذي نشاطر أهله العيش لا يهمنا من قريب أو بعيد!.

مواجهة النفس والإجابة على هذا تأتي في الآية: (وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

إنه الخوف!. الخوف المقوت بكل أشكاله وصوره، الخوف من غضب الآخرين، الخوف على أرزاقنا، الخوف من أشياء توهمنا وجودها. من هنا جاءت الآية: (أن يتخطفكم الناس). فالخوف من الناس من أعظم الأسباب التي تجعلنا نعيش حالة السلبية هذه والسكوت عن الإنحرافات وعن الخطأ الفردية والجماعية.

والآيـة تعالجها بقوله سبحانه في سياق تذكير المؤمنين بحماية اللّه وتوفيقه وتأييده لأصحاب الحق ضد أهل الباطل: ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

فلا شيء يبرر الخوف والتقاعس عن إحقاق الحق، وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهما أمانة، واللّه أمر بأداء الأمانة وعدم خيانتها، فالتقاعس خيانة للّه ولرسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٢٧.

هناك عامل آخر يحول بين الإنسان وبين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جاء في الآية التالية: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ٢٨.

ولكن من الذي وهب الحياة والمال والأولاد؟ وسائر النعم التي يتقلب فيها الإنسان؟.

إن استحضار الإيمان بأن الرزق بيد اللّه، وأن الأولاد بيد اللّه، وأن كل ما بنا من نعمة فهو من اللّه، يولّد في الإنسان النهوض للقيام بأوامر اللّه والتوكل عليه. ولذلك جاءت الآية التي تليها تربط بين العمل والجزاء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

إذا حقـق الإنسان معنى تقوى الله عز وجل في حياته، في نفسه، في عمله في كل ما يليه من مصالح الناس، موقنا بأن الله سيحاسبه وإن لم يحاسبــه أحد مــن البشر، جعل الله له نــورا وفرقانا ولذلك سُمي يوم بدر بالفرقان.

فـالله سبحانه فرق في ذلك اليوم بين الحق والباطل، بين باطل قــد أُعــدّت له العــدةّ وسُيِّرت لأجلــه الجيوش، وسار معــه صناديد قريش بكل عدّتهم وعتادهم، وبين حقٍ حمله ضعفاء من حيث القوة المادية، لكنهم حملوا قلوبا نقية قويةً بالتقوى.

لم تكـن جيوش المؤمنين التي خرجـت في غزوة بدر مسلّحة بأي ســلاح أو عتــاد سوى ســلاح الإيمــان والتقوى، مع عــدم الاستهانة بالأخذ بالأسباب المادية.

مــن أراد النصــر عليه بالتسلــح بالتقــوى، ذاك التسلح المصنع محليــا في القلوب المؤمنــة بربها، وبالحق الذي تخــرج للدفاع عنه. وهذا سلاح لا يمكن استيراده من شرق أو غرب بل يُصنع على عين القرآن العظيم وآياته الخالدة.

ولذا جاءت الآية التي تليها: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْيَقْتُلُوكَ أَوْيُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

فمكـر الغرب والشرق ومخططاته لا ينبغي لها أن توهن من قوة المؤمنين الذين تمكن الإيمان من قلوبهم، فمكّن اللّه لهم في الأرض، ومكـر لهم وهو سبحانه خير الماكريـن. وما قيمة أن يمكر بالإنسان كل قوى العالم واللّه سبحانه يمكر له؟.

الآيـة تحـرر القلـب مـن الخـوف الموهوم مـن أساطـين العالم وأساطيله، حـين تؤكد أن تصحيح العلاقة مع اللّه سبحانه بالتقوى كفيل بأن يعيد الحق إلى نصابه. فلو أن المسلمين في غزوة بدر وهنوا وضعفوا عن مواجهة المشركين ومخططاتهم وقوتهم المادية، ما كان للنصر أن يتحقق على أيديهم.

لو قال المسلمون غير الكلمة التي قالها ابن المنذر وقالها المقداد وقالها سعد بن معـاذ: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، لما قامت للإسلام قائمة.

الشعـور بالقوة والعزة يبـدأ من قلوب مُلئت بالتقـوى، والإيمان ومخافـة اللّه عز وجـل دون النـاس، تـزودت بالاستغفـار والتوبة، فتمكنت مـن الوقوف في وجه أعاصير الباطل والكـذب: ﴿وَمَا كَانَ اللَّه لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّه مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

وفي كل الأحـوال لابـد أن يكون اللّه تعالى هـو الغاية التي يخرج لأجلهـا الإنسان: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه

فَـإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللّه بِمَـا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا تقاتل من أجل منصب، أو مـال أو منفعة مادية، فتلك قضية خاسرة، بل اجعل اللّه سبحانه غايتـك التي لها فقـط ولأجلها تخرج. ﴿فَـإِنِ انتَهَوْاْ فَـإِنَّ اللّه بِمَا يَعْمَلُـونَ بَصِـيرٌ. وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّه مَوْلاَكُـمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾٤٠.

ويأتـي – بعد أربعين آية من الحديث عن قوانين النصر في قلوب البدريـين وفي قلوب كل المؤمنين في كل زمـان ومكان– الحديث عن قسمة الغنائم والدنيا في آية واحدة فقط.

﴿وَاعْلَمُـواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَـأَنَّ لِلّه خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَـى وَالْيَتَامَـى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُـمْ آمَنتُمْ بِاللّه وَمَا أَنزَلْنَـا عَلَى عَبْدِنَا يَـوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَـانِ وَاللّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

تلـك الدنيا التي جـاء التعبير عنها بقولـه سبحانه(من شيء) تحديـداً لحجمها الطبيعي، فكل ما يتصارع عليه بنو البشر بالأمس واليوم وغدا هو (من شيء) .

فالمتاع زائل والمال زائل والدنيا بكل ما عليها وفيها إلى زوال. فما الـذي بقي اليوم بعد أن قسمـت الغنائم وانتهت غزوة بدر؟ الإيمان والتقوى والعمل الصالح فقط.

ثم يعود الحديث من جديد في السورة إلى قوانين النصر:

﴿ يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَـةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُـمْ تُفْلَحُونَ.وَأَطِيعُـواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُـواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

إنــه الثبات علــى الحق وذكر اللّه قــولا وعملا، والصلــة بينهما وثيقــة. فذكر اللّه بالقلب كما باللســان والسلوك، يجدد في الإيمان الحياة والقوة، ويمنــح صاحبه الثبات على الحق الذي خرج لأجله. مــن هنا كان ذكر اللّه من أعظم الأعمــال لما يترتب عليه من تغيير جذري في سلوك الإنسان.

ثــم تنتقل الآيات إلى قانون لا ينبغي إغفاله، طاعة اللّه ورسوله في عدم إثارة النزاع والخصومات التي هي مفتاح الفشل الأكيد.

فقــد تم اغتيال وحدة الأمة اليــوم، تلك الفريضة التي نزلت بها آيــات الكتاب المجيد ولها وعليهــا عاش الحبيب صلى اللّه عليه وآله وسلــم قولا وفعــلا، وما كان يضام النبي صلــى اللّه عليه وآله وسلم لشيء كالفرقة وتمزيق تلك الوحدة.

ولا يجوز للمؤمنين أن يقفوا مكتوفي الأيدي غير عابئين بما يحصل فيهــا مــن شقاق ونــزاع وصــراع، فترك أمــور الخــلاف دون اهتمام

بمعالجتهـا يؤدي إلى استفحال الشـر، وإلى النتائج الوخيمة التي لن تقتصر على أحد بل ستشمل الأمة بمجموعها: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾الأنفال:٢٥.

فالأخـوة بين المسلمـين هي الأصل الأصيـل، والركن المتين الذي إن تحقـق، فإن الخلاف مهما عظم شأنه، وعلت درجته، وتعاظمت مكانته، يبقى أمراً طارئاً يمكن معالجته ضمن ذلك الأصل العظيم.

فالأمـر مما عظمت وصية الله تعـالى به فى كتابه كما عظم ذم مـن تركه. والأخوة لا تـزول ولا تُزال حتى إن وقع من المؤمنِ جريمة القتـل: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيـهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْـرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾. سورة البقرة/١٧٨.

فالإسلام جاء ليقيم جماعة، وينشئ أمة يرتبط أفرادها برباط الاخـوة والتحاب. فكانـت دعوته لتوحيد الكلمة تـلازم الدعوة إلى توحيـد الله عز وجل. قال تعـالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّـةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾. سورة الأنبياء/٩٢.

فهذه الرابطة المتينة من الأخوة بين المسلمين، لا ينبغي تعريضها للتصـدع أو الخلـل بحال، وعلى هذا لم ينزع القـرآن العظيم لباس الإيمـان وربقة الأخوة وعراها ولو في حال الاقتتـال: (وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا). سورة الحجرات/٩.

ولا ريب أن هذا النزاع والتمزق على حطام الدنيا بين أبناء الأمة هو من أخطر وأشد أسباب الهزيمة والتقهقر. وهو أمر لا يمكن أن تتم معالجته دون صبر وتحمل ومصابرة: ﴿وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

ولذلك كانت معركة بدر الحقيقية في النفوس ومجاهدتها للتخلص من داء التعلق بحطام الدنيا والتصارع عليه، وأي معركة تدار في عالمنا المعاصر - مهما اختلفت الأشكال وتعددت - لا تدار في ميادين المعارك ،بل الإدارة الحقيقية في النفوس وفي القلوب.

فإذا نجحت النفوس في التخلي عن مطامعها لأجل الحق والعدل الذي تؤمن به، تحقق لها النصر الأكيد مهما بلغت القوة التي تواجهها.

فعلى النقيض من المؤمنين، يزين الشيطان لأهل الباطل خروجهم، مدليا لهم بغرور: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ (٤٨)﴾ هذه قاعدة من قواعد الهزيمة في الطرف الآخر.

الطرف الآخر يزين له الشيطان ويحسن له الخروج، قائلا لهم: لا غالب لكم اليوم. وهكذا فعل الشيطان مع أبي جهل ومع المشركين قال لهم لا أحد يستطيع اليوم أن يغلبكم خاصة وأن مقاتليهم ضعفاء أقل منكم عدة وعدداً.

لم يتخيل ولم يدر بخلد المشركين أن من سينتصر هو النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المستضعفين الذين أخرجتهم قريش بلا مال ولا عتاد ولا قوة تساندهم.

إلا أن تزيين الشيطان لأهل الباطل سرعان ما تهاوى أمام قوة الحق وعلى أرض المعركة: ﴿فَلَمَّا تَرَاءت الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨)﴾.

تغيّرت المواقف، والموقف الذي وقفه الشيطان مع المشركين في غزوة بدر، يقفه كل شياطين الإنس والجن في كل زمان.

أما آن للمؤمنين أن يدركوا أن القوة الحقيقية هي قوة الله سبحانه التي لا يضاهيها قوة على وجه الأرض: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣)﴾.

هذه هي القضية الحقيقية وليست ما يهيأ للبعض اليوم، وهو ما توهمه فرعون ومن قبله ومن بعده أن القوة المادية وحدها كفيلة بحسم المعركة لصالح أهل الباطل: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَونَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ (٥٤)﴾.

الهزيمة قدر محتوم لكل ظالم، مهما طالت سلامته، ومهما بلغت قوته، كما أن كل صاحب حق سينتصر في نهاية الأمر فإما يعجل الله النصر في الدنيا وإما في الآخرة.

ولكن التساؤل متى سيدرك أتباع هذا القرآن العظيم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم؟ متى سيدركون أن التغيير الحقيقي مناط بالعودة الصادقة إلى كتاب الله المتجاوز لحدود الزمن الذي نزل فيه إلى كل عصر وزمن، ليعالج أدواء وأزمات الإنسان؟!

وبعد ستين آية من أصل خمس وسبعين آية، يأتي الحديث عن القوة المادية ودورها في معركة الحق والباطل: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴿٦٠﴾﴾.

الإعداد الروحي والإيماني هو الأساس في حسم معارك الحق والباطل، فلا يكون التركيز على الإعداد المادي ويتم إغفال هذا الجانب البالغ الأهمية والخطورة.

والكليات ومعاهد التدريب التي تقوم بإعداد وتأهيل الجيوش بحاجة إلى الوقوف عند هذه السورة العظيمة. فالمسلمون اليوم يمتلكون قوة لم يدركوا أهميتها ولم يتفطنوا لقوتها، إنها آيات الكتاب العظيم، الذي

يعلّم الناس فنّ السلم كما يعلمهم قواعد المواجهة والحرب: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) الأنفال﴾. لكنَ السّلم الذي تتحدث عنه الآيات سلم الأقوياء لا الضعفاء الذين لا يملكون حيلة ولا وسيلة إلا الخضوع والخنوع لأهل الباطل.

ثم تأتي الآية التي تجعل من المكر والخداع حيلة الضعفاء والخونة: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢)﴾ وهي حيلة لا تغني عن أهل الباطل شيئاً.

أهل الباطل في كل زمن يحيكون الدسائس والمؤامرات، لكن أهل الحق لا يواجهون الغدر بالخيانة والكذب بل بالاكتفاء بنصرة اللّه لهم: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾.

لا يضرك يا محمد صلى اللّه عليه وسلم ويا مؤمن بتعاليمه وبرسالته خيانة من خان. نحن في المجتمعات وكأفراد نخشى الخيانة والخونة. لكن الآيات تصحح هذا المفهوم. فالخيانة والغدر لا تضر المؤمنين شيئًا بل هي سبيل سالك للهزيمة والخذلان.

فكلما ازداد الإيمان في قلب المؤمن، وتمسك بالحفاظ على الأمانة بينه وبين اللّه عز وجل، كلما تولى اللّه سبحانه حفظه وصرف عنه كيد ومكر الماكرين والخائنين.

ثم في ختام الآيات تعود من جديد لتأكيد حقيقة لم تزل السورة تقف عندها في العديد من الآيات، الخروج والعمل والحياة والموت لا يكون إلا في سبيل الله والحصول على رضاه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ (٧٢)﴾.

فالذي أخرج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من مكة، كان سبيل الله، والذي دفعهم للتضحية بالمال والوطن والأهل والولد كان سبيل الله.

ولذلك كان ختام هذه السورة العظيمة، قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤)﴾.

الحياة في سبيل الله لا تعدلها نعمة، وعندها فقط يفوز الإنسان فوزاً حقيقياً، ليس فقط في ميادين حرب أو قتال بل في كل موقف يواجهه في حياته.

فما أجمل أن يحيا الإنسان لله، فيكون كل عمله وقوله وسكناته وحركات جوارحه ونبضات قلبه ومشاعره لله وحده لا شريك له.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

دعـــاء

١ ـ ربّنــا آتنــا في الدُّنْيا حَسَنة وفي الآخِرة حَسَنــة وقِنا عذابَ النّار. (البقرة: ٢٠١).

٢ ـ ربّنــا لا تؤاخذنا إنْ نسينــا أو أخْطأنا، ربّنا ولا تحْمل علينا إصْراً كمــا حَمَلْتَهُ على الّذين من قبْلنــا، ربّنا ولا تُحَمّلنا ما لا طاقَةَ لنا بــه، واعفُ عنّا واغفــر لنا وارْحمنــا أنت مولانــا فانْصُرنا على القوم الكافرين. (البقرة: ٢٨٦).

٣ ـ ربّنــا لا تُــزِغْ قلوبَنا بعد إذْ هَدَيْتنا وهــبْ لنا من لدُنْكَ رحْمَة إنّكَ أنتَ الوهّاب. (آل عمران: ٨).

٤ ـ ربّنــا إنّكَ جامِعُ النّاسِ ليــومٍ لا ريْبَ فيه إنّ الله لا يُخْلِفُ الميعاد. (آل عمران: ٩).

٥ ـ ربّنا إنّنا آمنّا فاغْفر لنا ذُنوبنا وقنا عذابَ النّار. (آل عمران: ١٦).

٦ ـ سَمعْنا وأطَعْنا غُفْرانَكَ ربّنا وإليْكَ المصير. (البقرة: ٢٨٥)

٧ ـ ربِّ هبْ لي مِنْ لدُنْكَ ذرّيةً طيّبَةً إنّكَ سميعُ الدّعاء. (آل عمران: ٣٨).

٨ ـ ربّنا آمنّا بِما أنْزلْــتَ واتَّبَعْنا الرّسول فاكْتُبْنا مع الشّاهدين. (آل عمران: ٥٣).

٩ ـ ربّنــا اغْفر لنا ذُنوبَنا واسْرافَنا في أمرِنا وثَبِّت أقْدامَنا وانْصُرنا على القَوْمِ الكافرين. (آل عمران: ١٤٧).

١٠ ـ ربّنــا إنّكَ مَنْ تُدْخِلِ النّار فقد أخْزَيْتَهُ وما للظّالمين من أنْصار. (آل عمران: ١٩٢).

١١ ـ ربّنــا إنّنــا سَمعْنا مُنادياً يُنادي للإيمــانِ أنْ آمنوا بربّكم فآمنّا ربّنــا فاغْفر لنا ذُنوبنا وكفّر عنّــا سيّئاتِنا وتَوَفّنا مع الأبرار. (آل عمران: ١٩٣).

١٢ ـ ربّنــا وآتنا ما وَعَدْتَنا علــى رُسُلك ولا تُخْزِنا يومَ القيامَةِ إنّكَ لا تُخْلفُ الميعاد. (آل عمران: ١٩٤).

١٣ ـ واجْعَل لنا من لَدُنْكَ وليّاً واجْعل لنا من لدُنْكَ نصيراً. (النساء: ٧٥).

١٤ ـ ربّنــا ظَلَمْنــا أنفُسَنــا وإنْ لم تَغْفِــر لنــا وترْحَمْنــا لَنَكونَــنَّ من الخاسرين. (الأعراف: ٢٣)

١٥ ـ ربّنا افْرِغْ علينا صَبْراً وتَوَفّنا مُسلمين. (الأعراف: ١٢٦)

١٦ ـ ربّ اغفــر لي ولأخي وأدْخِلْنا في رحمَتِكَ وأنتَ أرحمُ الرّاحمين. (الأعراف: ١٥١).

١٧ ـ أنتَ وليّنا فاغْفر لنا، وارْحَمْنا وأنت خيرُ الغافرين. (الأعراف: ١٥١)

رقـم الناشـر الدولـي ISBN
٩٧٨-٩٩٩٠١-٧٣١-٠-٩

رقـم الايـداع وادارة المكتبـات
د ع ١٠١١٢ -٢٠١٢